

سورة الإسراء

﴿الآيات: 13 - 17﴾

الدرس

5

أهداف الدرس

- 1- أن أتعرف كيف تعرض على الناس أعمالهم في الآخرة.
- 2- أن أستنتج عدل الله تعالى في الحساب والجزاء يوم القيامة.
- 3- أن أتمثل يوم الحساب لأقوي إيماني بعدل الله في الحساب والجزاء.

تمهيد

بعد أن بين الله تعالى صفات كتابه الحكيم، وأنه يفصل للناس ما ينفعهم وما يضرهم من الأعمال، مما يكون به سعادة الإنسان أو شقاؤه في دينه ودنياه، أتبع ذلك بذكر كتاب أعمال الإنسان، الذي لا يترك من هذه الأعمال شيئاً إلا أحصاه، موضحاً أن حسن هذه الأعمال أو قبحها تابع لأخذ الإنسان بما في كتاب الله أو تركه لذلك، كما أخبر سبحانه أنه لا يعاقب أحداً من الأمم إلا إذا أرسل إليهم الرسل يبلغونهم ويطيعون عليهم الحجة.

فكيف تعرض على الناس أعمالهم؟ وما الحكمة من بعثة الرسل عليهم السلام؟

الآيات

قال الله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ خَيْرُهُ وشرُّهُ، وَخُذْنَاهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا ۝١٣﴾ إقرأ كِتَابَكَ كَمَا بَنَيْتَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ۝١٤ مَرَاتِبُهُ وَإِنَّمَا يَنْتَقِي لِنَفْسِهِ، وَمَرْضٍ وَإِنَّمَا يَصِلُ عَلَيْهِمْ أَوْلَادُ تَرْزُوزٍ وَزُرَّاءُ وَزُرَّاءُ خَيْرٌ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ

حَتَّى تَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ وَإِنَّا آتُونَكَ آيَاتِنَا فَتَرَى كَثِيرًا مِّنَ الْفُرُوقِ أَفَرَأَيْتَ لِمَ تَدْعُوا رَبَّكَ يَبْدُ يُدْنِي وَيُبْذِلُ، فَخَيرٌ بِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴿١٦﴾ [سورة الإسراء: 13 - 17]

الفهم

الشرح :

كَثِيرًا : استعارة لعمل الإنسان.

حَسِيبًا : حاسبًا.

مُتَرَفِقًا : المترف الغني.

فَدَمَّرْنَا : التدمير الإهلاك مع طمس الآثار وهدم البناء.

الْفُرُوقِ : القوم يجمعهم زمان واحد.

فَرِيَّةً : المدينة المجتمعة.

استخلاص المضامين :

1- ما الغاية من عرض الأعمال على الناس في الآخرة؟

2- ما الغاية من بعثة الرسل؟

التفسير

اشتملت هذه الآيات على ما يأتي:

أولاً: عدل الله في محاسبة الناس على ما قدموا من أعمال:

بعد ما بين سبحانه أنه فصل في كتابه كل ما يحتاج إليه الناس من عقائد وأحكام، بين هنا أن الإنسان مسؤول عن كل ذلك وسيحاسب عليه. قال تعالى: ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ لَّزِمَتَهُ حَسِيبَةٌ، فِي عُنْفِهِ،

وَفُخِّرَ لَهُ، يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْفِيهِ مَنْشُورًا ﴿١﴾، قوله: ﴿كُلَّ﴾ منصوب بفعل مقدر. قال ابن عباس: ﴿كَلَّيْرُهُ﴾ ما قدر له وعليه. وخاطب الله العرب في هذه الآية بما تعرف، وذلك أنه كان من عادتها التيمن والتشاؤم بالطير، في كونها سانحة أو بارحة، وكثر ذلك حتى فعلته بالطباء وحيوان الفلاة، وسمت ذلك كله تطيرا. وكانت تعتقد أن تلك الطيرة قاضية بما يلقي الإنسان من خير وشر، فأخبرهم الله تعالى في هذه الآية في أوجز لفظ وأبلغ إشارة أن جميع ما يلقي الإنسان من خير وشر قد سبق به القضاء، وألزم حظه وعمله وكسبه في عنقه. وروى جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: " لا عدوى، ولا طيرة " [صحيح البخاري، كتاب الطب، باب الطيرة]. وبذلك أبطل الإسلام كل هذه المعتقدات الفاسدة.

وقوله: ﴿فِي عُنُقِهِ﴾ كناية عن اللزوم، كما يقال: جعلت هذا في عنقك، أي: قللتك هذا العمل وألزمتك الاحتفاظ به، ويقال: قللتك كذا وطوقت كذا، أي: صرفته إليك وألزمته إياك. وقد جرى أيضا على عادة العرب في أنها تنسب ما كان إلزاما وقلادة وأمانة ونحو هذا إلى العنق، كقولهم: دمي في عنق فلان. وتنسب ما كان تكسبا وجناية وإثما إلى اليد؛ إذ هي الأصل في التكسب.

وقوله: تعالى: ﴿إِفْرَأْكِتْلَبَا كَيْفَ يَنْفَعُكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ معمول لقول محذوف، والتقدير يقال له: اقرأ كتابك، وهذا القائل هو الله تعالى على أسنة الملائكة و﴿يَنْفَعُكَ﴾ فاعل ﴿كَيْفَى﴾. وهذا مذهب الجمهور. والباء زائدة، و﴿حَسِيبًا﴾ أي: حاسبا، ونصبه على التمييز. وأسند الطبري عن الحسن البصري أنه قال: "يا ابن آدم بسطت لك صحيفة، ووكل بك ملكان كريمان، أحدهما عن يمينك يكتب حسناتك، والآخر عن شمالك يحفظ سيئاتك، فاعمل ما شئت أو قلل أو أكثر، حتى إذا مت طويت صحيفة فجعلتها في عنقك معك في قبرك حتى تخرج يوم القيامة كتابا تلقاه منشورا اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا، قد عدل والله فيك من جعلك حسيب نفسك".

قال ابن عطية: فعلى هذه الألفاظ التي ذكر الحسن يكون الطائر ما يتحصل مع آدم من عمله في قبره. فتأمل لفظه، وهذا هو قول ابن عباس.

وقال قتادة في قوله: ﴿إِفْرَأْكِتْلَبَا﴾ إنه سيقرا يومئذ من لم يكن يقرأ.

قَالُوا بَلْ لَمْ يَكُنْ فِي السَّمَاءِ نَذِيرٌ ﴿٩﴾ [المك: 8-9]، وظاهر ﴿كَلَّمَ﴾ أنها تفيد الحصر، وكقوله تعالى: ﴿وَأَنْ مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ ﴿٢٤﴾ [فاطر: 24].

وأما من جهة النظر فإن بعثة آدم عليه السلام بالتوحيد، وبث المعتقدات في بنييه مع نصب الأدلة الدالة على الصانع مع سلامة الفطر يوجب على كل أحد من العالم الإيمان واتباع شريعة الله، ثم تجدد ذلك في مدة نوح عليه السلام بعد غرق الكفار.

وهذه الآية أيضا يعطي احتمال ألفاظها نحو هذا، ويجوز مع الفرض وجود قوم لم تصلهم رسالة وهم أهل الفترات الذين قد قدر وجودهم بعض أهل العلم.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَرْسَلْنَا نُوحًا مِّنْ قَرْيَةٍ أَمْرًا مِّنْ قَرْيَةٍ﴾ القرية: المدينة المجتمعة، مأخوذ من قرئت الماء في الحوض إذا جمعت، وليست من "قرأ" الذي هو مهموز. وقرأ الجمهور ﴿أَمْرًا﴾ على صيغة الماضي من أمر ضد نهى، وقرئت (أمرنا) بمد الهمزة، و(أمرنا) بتشديد الميم. قال الطبري: القراءة الأولى معناها أمرناهم بالطاعة فعصوا وفسقوا فيها، وهو قول ابن عباس وابن جبير. والثانية: معناها كثرناهم. والثالثة: هي من الإمارة، أي: ملكناهم على الناس.

وقوله سبحانه: ﴿فَقَسَّوْا فِيهَا﴾ أي: فخرجوا عما أمرهم الله وعملوا المعاصي فيها ﴿فَقَوَّعَ عَلَيْهِمُ الْقَوْلَ﴾ هذا وعيد الله لها على لسان رسولهم ﴿فَدَمَّرْنَا قَرْيَةً مِّمَّا كَانَتْ﴾ أي: أهلكتنا فهدمنا بناءها وطمسنا آثارها.

ثم قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكَجَاءِ بِرَبِّكَ يَذُنُّوْا عِبَادَكَ خَيْرًا بَصِيرًا﴾ ﴿وَكَمْ﴾ في موضع نصب بأهلكنا، وهذا الذكر لكثرة من أهلك الله من القرون مثال لقريش ووعد لهم، أي: لستم ببعيدين مما حصل لهؤلاء القرون من العذاب إذا أنتم كذبتهم نبيكم.

واختلف الناس في القرن، فقال ابن سيرين: عن النبي عليه السلام أربعون، وقيل: غير هذا مما هو قريب منه، وقال عبد الله بن أبي أوفى: القرن مائة وعشرون سنة، وقالت طائفة: القرن

مائة سنة، وهذا هو الأصح الذي يعضده الحديث في قوله عليه السلام " خير الناس قرني " [صحيح

البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم]

والباء في قوله: ﴿يَرْبِّي﴾ زائدة، التقدير وكفى ربذتك، وهذه الباء إنما تجيء في الأغلب في مدح أو ذم، وكأنها تعطي معنى اكتف بربك، أي: ما أكفاه في هذا.

ثالثاً: مقاصد الآيات:

ترشد الآيات إلى جملة من المقاصد التربوية، منها ما يأتي:

- أن الإنسان رهين أعماله، وأنه سيجدها في كتاب ينشر بين يديه يقرؤه يوم القيامة، ويحاسب نفسه بنفسه على ما قدم من أعمال. وهذا مظهر من مظاهر عدل الله حيث يقيم الحجة على الناس بقراءة أعمالهم بأنفسهم.
- أن الإنسان لا يحاسب إلا على أعماله ولا يؤخذ بذنوب غيره؛ لأن عمل الإنسان هو أساس النجاح في الدنيا والنجاة في الآخرة، وأن ثمرات العمل الصالح إنما تعود بالخير على الإنسان، كما أن نتائج الضلال والطغيان تعود بالضرر عليه نفسه.
- أن الناس لا يحاسبون ولا يعاقبون إلا بعد إقامة الحجة عليهم، ببعثة الرسل وإنزال الكتب التي تبين للناس العقائد والشرائع. وهو مذهب أهل السنة في أن الحاكم هو الله، وأن الأساس في التشريع هو النقل.

التقويم

- 1 - لماذا عبر القرآن الكريم عن عمل الإنسان بطائره؟
- 2 - كيف يكون الإنسان محاسباً لنفسه؟
- 3 - كيف توفق بين ما جاء في الآيات وقول النبي ﷺ: " إن الميت ليعذب ببكاء أهله عليه " ؟
- 4 - ما سبب استحقاق الهلاك الذي نزل ببعض الأقوام بعد نوح عليه السلام؟

الاستثمار

يقول الشاطبي رحمه الله في سياق عرض بعض سنن الله تعالى: "فَمِنْ ذَلِكَ: عَدَمُ الْمُؤَاخَذَةِ قَبْلَ الْإِنْذَارِ، وَدَلَّ عَلَى ذَلِكَ إِبْخَارُهُ تَعَالَى عَنْ نَفْسِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: 15]، فَجَرَتْ عَادَتُهُ فِي خَلْقِهِ أَنَّهُ لَا يُؤَاخِذُ بِالْمُخَالَفَةِ إِلَّا بَعْدَ إِرْسَالِ الرُّسُلِ؛ فَإِذَا قَامَتِ الْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ ﴿فَمَرَّ شَاءَ قَلِيلُ يَوْمٍ وَمَرَّ شَاءَ قَلِيلُ كَيْفٍ﴾ [الكهف: 29]، وَلِكُلِّ جَزَاءٍ مِثْلُهُ. وَمِنْهَا: الْإِبْلَاغُ فِي إِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَى مَا خَاطَبَ بِهِ الْخَلْقَ؛ فَإِنَّهُ تَعَالَى أَنْزَلَ الْقُرْآنَ بُرْهَانًا فِي نَفْسِهِ عَلَى صِحَّةِ مَا فِيهِ، وَزَادَ عَلَى يَدَيِ رَسُولِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنَ الْمُعْجَزَاتِ مَا فِي بَعْضِهِ الْكِفَايَةُ. وَمِنْهَا: تَرْكُ الْأَخْذِ مِنْ أَوَّلِ مَرَّةٍ بِالذَّنْبِ، وَالْحِلْمُ عَنْ تَعْجِيلِ الْمُعَانِدِينَ بِالْعَذَابِ، مَعَ تَمَادِيهِمْ عَلَى الْإِبَابَةِ وَالْجُحُودِ بَعْدَ وُضُوحِ الْبُرْهَانِ، وَإِنْ اسْتَعْجَلُوا بِهِ."

[الموافقات في أصول الشريعة، للإمام الشاطبي: 200/4]

أتأمل النص وأجيب عن الآتي:

1 - ماذا يشترط في التكليف والمؤاخذه من خلال النص؟

2 - متى يؤخذ المذنبون حسب ما جاء في النص؟

الإعداد القبلي

أتأمل الآيات: 18 - 22 من سورة الإسراء وأجيب عن الآتي:

1 - أبحث عن مدلولات العبارات الآتية: الْعَاجِلَةُ - يَصْلِيْقَا - مَذْخُورًا - فَخْضُورًا - قَحْضُورًا .

2 - أبحث عن شروط العمل الذي وصفه الله بأنه كان سعيًا مشكورًا.

3 - أوضح معنى قوله تعالى: ﴿مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾ مستحضرا ما فيها من قراءات، ومبينًا إعرابها ومعاد ضمائرهما.